(c) http://nidaulhind.blogspot.com

ISSN 0970-3713

مجلة علمية ثقافية ، جامعة، فصلية

ثـــقـــافة الـــهنـــد

المـجـلد ٥٣ الـعـدد ١

٢٠٠٢م

رئيس التحرير

س ضياء الحسن الندوي

المجلس الهندي للعلاقات الثقافية
ازاد بهاون، نيو دلهي
الهند

(c) http://nidaulhind.blogspot.com

مجلة ثقافة الهند الفصلية

المجلد ٥٣ العدد ١
٢٠٠٢م

محتويات العدد

(٣)الآداب العالمية تقطف ثمار الحكمة الهندية ٢٠-٢٨

د/وليد كاصيد الزيدي

(c) http://nidaulhind.blogspot.com

الآداب العالمية تقطف ثمار الحكمة الهندية

بقلم:وليد كاصد الزيدي

تعرف دائرة المعارف البريطانية " الحكمة" بأنها " نوع من الرسائل الأخلاقية التي تظهر طبيعة الخير، و تتكفل بأخبار الطائفة التي كتبت من أجلها عن الوسيلة التي يتسنى بها تحقيق الخير".

وبلاد الهند التي تمتلك ثراء ثقافيا ثرا - نظرا لحضارتها العربية ذات الجذور التاريخية الضاربة في أعماق الزمن، قد ساهمت مع الأمم الأخرى في رفد الإنسانية بثمار الثقافة الأصيلة و في مقدمتها ثمار الحكمة الهندية.

وفي الأدب الهندي كثيرا من القصائد و الملاحم، و القصص والمسرحيات مثل ملحمة (المهابهارتا) التي أعتبرها النقاد أعظم آية من آيات الجمال التي أنتجتها آسيا و قال عنها (اليوت) : " إنها قصيدة أعظم من الإلياذة و قد كتبها مائة شاعر و ترنم بها ألف منشد، و لست أدعو إلى ترجمة هذه القصيدة، إنما أقول : أننا لابد أن نلم بهذا التراث الهندي الكبير

(c) http://nidaulhind.blogspot.com

بعض الإلمـام، لأن الرجـل العـادي فـي الـهند يحفـظ الكثـير مـن أبيـات هـذه الملحمة. و الأدب الـهندي علـى العمـوم حـافل بالرومانسـية العميقـة و نحـن بدراستنا هذا الأدب نغوص في أعماق الروح و نقـترب مـن سـرها و نحـس برهبتها و نجلو الكثير من أسرار الطبيعة و نعيـش فـي حضنـها كمـا يعيـش الأطفال الأبرياء في حضن أمهم الرووم.

في حين نجد أن كثيرا من الكتاب الغربيين قد أغفلوا ما تمتلكه الـهند من ثقافة إنسانية تحمل بين طياتها بـذور السـلام و المحبـة التـي تصبـو إلـى نشرها بين جميع الشعوب، في ذلـك يـرد الزعيـم الراحـل"نـهرو" بصـورة غير مباشرة على أولئك الذين أرادوا تشويه مفـهوم الحكمـة الهنديـة بقولـه : "ليست عقيدة سرية و لا هي معرفة خفية تلك التـي أبقـت الـهند حيـة، باقيـة على مر العصور الطويلة، و إنما هي نزعة إنسانية رقيقة، و ثقافـة متنوعـة متسامحة، وفهم عميق للحياة و مسـالكها الخفيـة، هـي التـي جعلـت حيويتـها الفياضة تتدفق من عصر إلى عصر في المجالات الجلية في الأدب و الفن."

أعلام الأدب الغربي و الحكمة الهندية:

لقد أغنت الثقافة الهندية الآداب العالمية بالأساطير و القصص التـي تتدرج في ثناياها مفاهيم الحكمة و الوعظ و النصيحة، و أسـتلهم منـها كبـار أدباء العالم كثيرا من مضامينها و دروسها ليوظفوها في كتاباتهم و أشعارهم.

فـها هـو الأديـب الروسـي الكبـير - تولسـتوي - (١٨٨٣- ١٩٤٥) يحاول أن يجعل الثقافة الروحية الهنديـة، شـعبية فـي روسـيا سـعيا منـه إلـى خلق عالم أفضـل، كمـا أنـه يبحـث فـي قيـم الخـير و العدالـة التـي تضـمنتـها الأعمال الفلسفية الهندية القديمة و المعاصرة لغرض فـرض القيـم الأخلاقيـة

(c) http://nidaulhind.blogspot.com

في بلاده، فيما حاول أن يحل لغز الماهية الروحية للإنسان و قدره و سر وجوده من خلال الحكمة الهندية.

و حين ننتقل إلى علم آخر من أعلام الأدب العالمي، و هو الشاعر والأديب الكبير - غوته - (١٧٤٩- ١٨٣٢) نجده قد أتجه إلى قطف ثمار الحكمة الهندية، بعد أن حفزه إلى ذلك صديقه الكبير (هردر) ليرد مناهل الثقافة الآرية.

فقد قرأ ترجمة ألمانية عام ١٦٨١ للملحمة الهندية الكبرى "مهابهارتا" (Mahabharata) وقد أستوقف "غوته" منها قصة صاغ منها الفاتحة المسرحية في مسرحيته المشهورة "فاوست"، فضلا عن تأثره بالأساطير الأخرى التي صاغها في أروع صورة و أبدع نظم، بحيث أصبحت من فرائد موشاحاته القصصية التي عرفت لدى الألمان باسم (Balade) وفي مقدمتها جميعا أسطورة "الإله و الراقصة"، و لم يفت "غوته" أن يطالع حكيات الفيلسوف "بيدبا" في كليلة و دمنة، تلك الحكم التي وضعها على ألسنة الحيوان لملك الهند "دبلشيم" في القرن الرابع قبل الميلاد.

وحين ننتقل إلى رائد من رواد الأدب الفرنسي، و هو الأديب الشهير - لافونتين - (١٦٢١/ ١٦٩٥)، نجده هو الآخر قد ارتشف من مناهل الثقافة و الحكمة الهندية، فقد تأثر بقصص كليلة و دمنة و أقتبس منها عشرين حكاية نظمها على لسان الحيوان، مضمونها حكم و مواعظ، حيث يقول في مقدمة الجزء الثاني من حكاياته : " ليس من الضروري فيما أرى ... أن أذكر المصادر التي أخذت منها هذه الحكايات الأخيرة، غير أني أقول اعترافا بالجميل : إني مدين في أكثرها للحكيم الهندي (بلباي) الذي ترجم

To: www.al-mostafa.com

(c) http://nidaulhind.blogspot.com

كتابه إلى كل اللغات، و هو يقصد "بيدبا" الفيلسوف الذي قيلت حكايات كليلة و دمنة على لسانه، و لعل هذا الكتاب هو أكثر كتب الهند التي تحمل بين طياتها الكثير من المواعظ و الحكم و النصائح.

و من الجدير بالذكر أن كتاب "كليلة و دمنة"، له أثر بالغ في تغير مجرى الحكمة، فهنا الطير و السباع و البهائم تنطق و تتكلم، و يدخل الخيال و الفن في صياغة الطريقة التي تلقن بها أصول الحكمة، و في ذلك يقول لافونتين : " أن بلاد الشرق هي مهد القصص و الأمثال المضروبة على ألسن الحيوان و الطير، و الهند خاصة هي مهد القصص الحكمية التي شاعت في أرجاء الأرض، و انتقلت إلى بلاد الصين و التبت و بلغت أوربا فى العصور القديمة.

طاغور رائد الشعر و الحكمة الهندية:

ولعل من أبرز ما جادت به الهند من أدب و حكمة نتاجات الشاعر الكبير "طاغور" الذي وظف عناصر الجمال و المسحة الإنسانية في الحكمة الهندية، ليرد بها على أولئك الذين يصفون الثقافة الهندية بكونها أحادية أجانب، فضلا عن ما قام به من إعادة إحياء التراث الكلاسيكي للبلاد كشف من خلاله الماهية الحقيقة للجمال و الحكمة الهندية، فنظرية اليوبانشاد (Upanishad) التي ألفها عدد من الحكماء بين سنة (٨٠٠ و ٥٠٠ ق.م.) حيث كان ينظر إليها على أنها انسحاب من الحياة إلى التصوف، فيما فسرها (طاغور) بأنها كانت إدراكا مرحا و ممتعا للحياة و إثباتا لعظمة الإنسان وخلوده و حكمته.

(c) http://nidaulhind.blogspot.com

كذلك نجد أن نظرية الاهمسا (Ahimsa) التي كان الزعيم الراحل "غاندي" من أنصارها المتحمسين هي تصوير رائع للمثل العليا لأبطال الملاحم البطولية فهي تمجد أولئك الذين قاموا بأعمال بطولية لمقاومة الطغيان و نشر السلام على الأرض و تؤكد ما جاءت به الأساطير القديمة من انتصار الخير على الشر في نهاية المطاف.

إن طاغور الشاعر العظيم التي تتدفق قصائده حكمة و فلسفة أستمدها من رؤياء الإنسانية للفلسفة الهندية يعد بحق أميرا بين أولئك الرجال الذين استوحوا وطنيتهم التي لا تتقيد بالتعصب و لا تحدها الإقليمية الضعيفة و كانت فكرته في الهند الحرة أو بالأحرى في العالم الحر قد سكبها في قصيدة شعرية رائعة يقول فيها:

"هناك حيث العقل لا يهدده الخوف

و حيث الرأس ينتصب عاليا

هناك حيث المعرفة الحرة

هناك حيث تنبع الكلمة من أعماق الحقيقة...

دع بلادي تستيقظ."

هذا و تتجسد الحكمة الهندية في روحانية "طاغور" الداعية إلى الحب لا الحرب و إلى السلام القائم على العدل، ذلك أنه يحب الطبيعة ويحب الإنسان، و كما يقول الدكتور أحمد أمين: " طاغور هو خلاصة أفكار الهند، و الفن الصادق عنده هو الذي يسمو بنا فوق آلية الحياة و ينسينا نقصها وصغائرها و يخرجنا من قيود التكاليف، و طاغور يمتلك نظرية ثاقبة

(c) http://nidaulhind.blogspot.com

وحكمة بالغة قلما يمتلكها غيره، فهو ينظر إلى الشاعر المتشائم بأنه لا يمكن أن يكون شاعرا، فشعر التشاؤم قائما على التناقض لأن الذي لا يرى في الحياة شيئا جميلا لا يمكن أن يكون شاعرا، و الشاعر الباحث عن الجمال في الأشياء لا بد و أن يعشق الأرض، و يرضى عن الحياة و يكون ذا روح هادئة مطمئنة".

أن أعظم ما يتسم به طاغور هو حبه الشديد للإنسان، لا فرق بين جنس و آخر و لا بين لون و لون، أو دين و دين، مما دعا " نهرو" إلى تسميته بإنسان الهند العظيم، لذا فهو يعبر عن ذلك في قصيدته " الحياة":

"أريد أن أحيا مع البشر في هذه الحديقة المزهرة

دعني أجد مكانا على هذه الأرض

تفيض الحياة يوما"

لقد أثر "طاغور" في كثير من أدباء العالم البارزين، و له في ذلك شهادات من المدح و الإطراء، من ذلك قول الكاتب الفرنسي الشهير أندريه جيد : " لا أظنني عرفت في الآداب العالمية نبرة أسمى و أجمل من نبرة طاغور".

في حين قال عنه الدكتور طه حسين " أن الذي يملأ نفسك في حضرة طاغور هو تجلى فكرته الروحية على كل شئ في كيانه المادي".

وقال عنه الأديب الكبير ميخائيل نعيمة : " كان طاغور أنشودة عذبة في فم الحياة، فكانت الحياة أنشودة عذبة في فمه و كان جوهرة نادرة

(c) http://nidaulhind.blogspot.com

في خزانتها، فكانت جوهرة نادرة في خزانته، لقد غنته الحياة فغناها، وأغنته فأغناها"

لقد كانت وصاياه إلى تلامذته مليئة بالحكمة و الموعظة متوخيا من خلالها بناء الفرد و المجتمع على حد سواء فقد قال موصيا أحد طلابه : " لا تتخل أبدا عن حريتك العقلية سواء لصديق أو لعدو، ودع نوافذ عقلك مفتحة على الدوام، متحررة أبدا فالتعصب يقضي بالموت على عقل الإنسان، و أن تنظر إلى الإنسان على أنه عضو في الجماعة الإنسانية الكبيرة دون أي اعتبار آخر من اعتبارات الطائفة أو الجماعة أو الوطنية أو الجنس. و فيه يقول الشاعر الإنجليزي "بيرنز" : " نحن نحارب و نجمع مالا و نملا رؤوسنا بالسياسات و كل ما هو كئيب في فعله على حين أن مستر طاغور مثل المدينة الهندية نفسها قانع باكتشاف النفس و مستلهم الذاتية".

لقد أستلهم " طاغور" خلاصة أفكاره من الطبيعة، الأم الخالدة، وقد أتجه إلى أحضانها بعد أن فقد زوجته و بناته الثلاث، فبات وحيدا ناسكا يستهوي الوحدة و الطبيعة و في تلك المأساة يقول : " إن عاصفة الموت التي اجتاحت داري فسلبتني زوجتي و اختطفت زهرة أولادي، أضحت لي نعمة و رحمة فقد أشعرتني بنقصي و حفزتني و ألهمتني أن العالم لا يفتقد ما يضيع منه".

لقد ترك طاغور أثرا عظيما من خلال ما جادت به قريحته الشعرية و أفكاره المخضبة بالحكمة، التي لم تزل تنهل منها الآداب الإنسانية في كافة أرجاء العالم، فقد خلف "طاغور" لعشاق الفن و الأدب أكثر من ألف قصيدة، و أكثر من ألفي أغنية و ثلاثة آلاف لوحة، و مئات القصص والمسرحيات و المقالات.

(c) http://nidaulhind.blogspot.com

كتاب كليلة و دمنة :

لعل هذا الكتاب أهم كتب الهند التي تحمل معاني الحكمة، و أكثرها انتشارا في أرجاء العالم كافة، فقد ترجم إلى ستين لغة عن اللغة العربية، تلك التي ترجمها عن الأصل الفارسي عبد الله ابن المقفع في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، و كان قد نقلها من الهندية إلى الفارسية الطبيب الفارسي " برزوية" في عهد الملك "انوشروان" ملك الفرس آنذاك، وفي ذلك يقول "ابن أبي اصبيعة" : " إن برزويه كان عالما بصناعة الطب، موسوما بها، متميزا في زمانه، فاضلا في علوم الفرس و الهند، و أنه هو الذي جلب كتاب كليلة و دمنة، من الهند إلى أنوشروان بن قباز بن فيروز ملك الفرس، و ترجمه له عن اللغة الهندية إلى الفارسية، ثم ترجمه في الإسلام، عبد الله ابن المقفع، من الفارسية إلى اللغة العربية".

كذلك أشار القفطي إلى أن ابن المقفع هو ترجم " الكتاب الهندي المعروف بكليلة و دمنة"، و يؤكد جرجي زيدان ذلك بقوله " و قد كتب أولا باللغة الهندية السنسكريتية من "١٢" بابا، و قد أغنى هذا الكتاب بما احتواه من حكمة و موعظة كثيرا من الآداب و الثقافات العالمية التي تناقلته عبر ترجمات مختلفة".

وفي الإطراء على هذا الأثر الأدبي الثر و التأكيد على هويته الهندية، يقول الكاتب عمر الطباع : " وخلاصة القول حول هوية كتاب "كليلة و دمنة"، أنه سنسكريتي المنبت، إنساني الثمار، فلئن كانت جذور قصصه الخرافي، قد تولدت في ترجمة الشخصية الهندية، بما فيها من فكر متخيل، و خيال مفكر، جعلت هذا الفن غير المصبوغ بحدود زمنية،

(c) http://nidaulhind.blogspot.com

أومكانية معينة، و غير مقتصر على جنسية أدب بالذات، لقد أتاحت له أن يجد ظروف حياته، و نمائه، في أجواء الأدب جميعا، فإذا بهذا الجذور ترتفع ساقا، و تتشعب أغصانا و أفنانا، تمتد ظلالا، و تتثاقل جنيا و قطافا دانيا، تتذوقه الإنسانية قاطبة".

إن ما تحدثنا عنه إنما هو غيض من فيض، لا يمثل - بكل تأكيد - ما جادت به الحكمة و الثقافة الهندية، التي أسهمت بدور كبير إثراء ثقافات العالم الأخرى، فمثلما استلهمت هي أيضا من روائع و كنوز أدبية جادت بها شعوب الحضارات العريقة، نظيرات الحضارة الهندية في الأصالة و القدم، مثل حضارات بلاد الرافدين ووادي النيل و الحضارة اليونانية و الرومانية أو حضارة التبت و غيرها.

حيث كان من ثمار هذا التلاقح الثقافي و الأدبي، نتاجات كبار الأدباء و الكتاب في العالم، التي جادت أقلامهم بمضامين الحكمة و الفلسفة المستمدة من ثنايا تأريخ تلك الشعوب العريقة.